الانتحار في سبيل تقدم العلوم

في يوم الأربعاء الواقع في 10 آذار عام 1970 وعلى أرض الحفريات الأثرية في صقارة على بعد 30 كيلومتراً جنوب القاهرة كان العمال يستعدون لترك العمل بعد يوم حافل، ومع أن الساعة كانت تشير إلى الثانية بعد الظهر إلا أن العمال كانوا شعثاً غبراً من رمال الصحراء فأخذوا يلقون بقففهم المصنوعة من الإطارات المطاطية لسيارات الشحن على الرمل، ففي الساعة السابعة صباحاً كان العمال ينقلون الرمل والتراب والصخور من باطن الأرض من عمق حوالي عشرة أمتار، ولم تكن تلك العمليات سهلة ولكن كانت أجورها جيدة، إذ أين يستطيع العامل أن يجد أجوراً أحسن من تلك الأجور على طرف الصحراء الليبية؟.

لقد أصبحت قرية صقارة جذابة منذ عام 1935 عندما بدأ جميع أولئك المنقبون المهووسون بالحفر يتوافدون إلى هناك، وكانت مقبرة صقارة وهي مدينة الموتى التابعة لمدينة ممفيس القديمة تبلغ سبعة كيلومترات طولاً ومن 500 إلى 1500 متراً عرضاً ويشرف عليها من علٍ هرم (زوسر) الذي يبلغ خمسة آلاف السنة من العمر ويعتبر أقدم بناء لم يُمسُّ في العالم.

وقف (ولتر بريان إيمري) وهو أستاذ الآثار المصرية القديمة ورئيس بعثة الحفريات بجانب طرف الحفرة.

كان بريان وهو الاسم الذي اعتاد زملاؤه مناداته به يحمل تمثالاً صغيراً يبلغ علوه نحو عشرين سنتيمتراً وهو تمثال إله الموت «أوزيريس» وكان يتفحص التمثال من جميع جوانبه بإمعان ثم سار باتجاه القرية يرافقه مساعده المصري.

كان للحفارين بيت صغير مؤلف من طابق واحد في (صقارة)، وفيه مكتب وغرفة للغسيل، ولكن لم يكن أي من علماء الآثار يعيش هناك وعندما وصل إيمري ومساعده المدعو (علي الخولي) إلى المكتب كان علي الخولي منهوك القوى بسبب الجو فسقط على خِوان وأما إيمري فقد مشى ودخل إلى غرفة الغسيل والآن لنسمع المساعد يروي بقية القصة:

جلست على الخوان. وفجأة سمعت صوت عويل وأنين يصدر من غرفة الغسيل فنظرت من خلال الباب وكان مفتوحاً جزئياً ورأيت إيمري يتمسك بحوض الغسيل «فقلت له هل تشعر بالمرض؟» ولكن الأستاذ لم يجب وقد وقف هناك وكأنه مشلول فأمسكت به من تلابيبه وسحبته إلى الخوان وبعد ذلك أسرعت نحو الهاتف.

حضرت سيارة الإسعاف ونقلت إيمري إلى المستشفى البريطاني في القاهرة وكان تشخيص المرض كما يلي: «شلل في الجانب الأيسر» ولم يكن باستطاعته الكلام وقد مكثت زوجته ماري التي كانت تصحبه في معظم رحلاته معه طوال الليل وفي اليوم التالي الواقع في 11 آذار عام 1971 مات ولتر بريان إيمري وبعد يوم كتبت جريدة الأهرام القاهرية مايلي. «إن هذه الحادثة الغريبة تجعلنا نعتقد أن لعنة الفراعنة الخرافية قد عادت إلى الظهور».

كان الحفارون المصريون الوطنيون يقولون: إن (إيمري) لم يكن إنكليزياً بل مصرياً ينكر وجود تلك اللعنة باستمرار مع أنه قد سمع بها ولكن عندما يحدث أن يطلب الصحفيون منه أن يعلق عليها كان دائماً يرفض ذلك وقد قال علي الخولي:

«كان إيمري يتحدث عن كل شيء ما عدا تلك» لم يضع إيمري خطة لكي يصبح عالم آثار ففي أول الأمر كان التاريخ المصري بالنسبة إليه مجرّد مغامرة للتسلية

كاستراحة قصيرة. وقد تدرب على الهندسة البحرية واشتغل في إنشاء مدرعتين حربيتين كما حدث له تطور آخر بالنسبة لحياته فقد عاد إلى كليته عام 1921 لدراسة التاريخ المصري تحت إشراف أستاذه توماس بيت إذ إنّ هذا الموضوع قد استهواه منذ أيام الدراسة ولكن بعد أن أطال التفكير حول النصوص القديمة وجد أن هذه أيضاً لم تكن تروق له. وبعد سنتين ترك المدرسة فترة ثانية ليشترك في البعثة الذاهبة إلى الأقصر في مصر وفي عام 1926 كان قد قام بحفريات في أكثر من اثني عشر قبراً مصرياً قديماً وأهمها قبر الوزير (راموس) وهو أحد الشخصيات في الأسرة الثامنة عشرة وبعد ثلاث سنوات (عام 1929) نقل نشاطه إلى بلاد النوبة حيث كانت عدة مشاريع تنفيذ تنتظر الإنقاذ من الغرق والفناء بسبب مشروع خزان أسوان.

عين إيمري مدير التنقيب والحفريات في عام 1935 وكان أول عمل له هو تنظيف المقبرة الكبيرة التي يرجع عهدها إلى الأسرة الأولى وقد كرس معظم نشاطه في العشرين سنة التي تلت لهذا العمل، مع العلم أنه خدم في الحرب العالمية الثانية.

وبعد الحرب كانت الميزانية المخصصة للحفريات قليلة جداً وبعد ذلك حدثت مشكلة قناة السويس عام 1956 ولكن وبما أن إيمري قد أصبح معتاداً على جو مصر فقد قبل مركزاً دبلوماسياً في القاهرة وأخيراً عين أستاذاً للتاريخ المصري في جامعة لندن وهكذا استطاع أن يحق. ق تناسقاً بين محاضراته في لندن وأبحاثه في مصر. وفي 5 تشرين الأول عام 1964 بدأ إيمري ما كان يعتبره أهم عمل في حياته وهو البحث عن قبر أمنحوتب.

لقد كان أمنحوتب رجلاً ممتعاً وقد قال عنه إيمري إنَّه «أول طبيب يظهر واضحاً جلياً من بين طيات التاريخ القديم» وقد عاش في زمن الفراعنة الأوائل وقد كان لديه معلومات طبية جعلت الناس يعتقدون أنه إله الشفاء وقد كان مهندساً أيضاً ومستشاراً للفرعون (زوسر) ووزيراً له عمل كمشرف على الأشغال العامة في مصر العليا والسفلى وقد بنى هرم (زوسر) ويعتقد أنه هو الذي اخترع التقويم (الروزنامة) والكتابة وبالاختصار كان كتلة من العبقرية.

ولما كان قبر أمنحوتب لم يكتشف بعد فلا مناص من الافتراض بأن ذلك القبر لم يمسّ ولم ينهب ويدعم هذا الافتراض أن أمنحوتب كان ذا مقدرة هندسية رائعة ومن المؤكد أنه قد بنى لنفسه قبراً وهو لا يزال على قيد الحياة وهو يختلف عن هرم الفرعون زوسر ولكنه لا يقل عنه في فخامته وروعته وكان (إيمري) يعتقد أن اكتشاف قبر أمنحوتب لا يقل في أهميته بالنسبة لتاريخ المملكة القديمة عن اكتشاف قبر توت عنخ أمون بالنسبة للإمبراطورية الجديدة.

ولكن أين يجب أن يبدأ الحفر يا ترى؟.

إن أولى الحفريات التجريبية أوضحت أن الوادي بأجمعه مملوء بالآثار التي يرجع عهدها إلى المملكة القديمة والأسر القديمة وقد حفظت كثير من الأبنية التي كان علوها لا يتجاوز ثلاثة الأمتار، حفظت فقط لأنه في زمن بطليموس ألقيت كتل من الحجارة بين الأنصاب وكان هذا سبباً أعفى الأرض من إمكانية إنشاء أبنية جديدة عليها.

وقد كتب الأستاذ إيمري يقول: أصبحت مهتماً بمنطقة الوادي في أقصى الغرب من مدينة الموتى القديمة في شمال (صقارة) وذلك لأن المنطقة بأجمعها مغطاة ببقايا الفخار الذي يرجع عهده إلى البطالسة وتذكرنا (بأم القواب) في أبيدوس وقبل انتهاء أعمال جماعة التنقيب في عام 1956 حفرت حفرتين في هذه المنطقة فظهر لي بعض الأعمال الفخارية من عهد الأسرة الثالثة ووجدت عجلين مقدسين مدفونين وبقايا مومياء إيبيس في أواني فخارية مقفلة وإنَّ وجود إيبيس مدفوناً في ممرات تحت الأرض كان معروفاً من قبل بعض المنقبين في القرن الماضي. ولكن لسبب ما لم تعرف دلالة وجوده مع قبور القرن الثالث، ونظراً للاعتقاد المنتشر أن قبر أمنحوتب موجود في مكان ما في مدينة الموتى القديمة (وهذا ما يثبته بقوة العلماء فيرث وكوبيل وريزند) فإن وجود العجل وإيبيس أكَّدا أن هذا الموقع له ارتباط محتمل بمدفن أمنحوتب، وعلى أي حال فإن أحوال سطح الأرض في تلك المنطقة تشير أيضاً إلى ذلك نظراً لأن المكان كان مخصصاً للحج في زمن البطالسة والرومانيين.

استمر إيمري في العمل بشكل محموم واضعاً ذلك الهدف نصب عينيه وفي 10 كانون الأول عام 1964 عثر على حفرة تحتوي قبراً من الأسرة الثالثة على بعد عشرة أمتار من سطح الأرض وقد وجد أمامه متاهة متشعبة الفروع. ممرات وبوابات من الآجر المجفف وعدداً لا يحصى من مومياء إيبيس وكان من الواضح أن عدة أجيال قد تعاقبت على هذا المكان وعندما وجد (إيمري) تمثالاً من عهد بطليموس عرف أنه يسير في الطريق الصحيح. إذ إنَّهُ وجد على قاعدة ذلك التمثال قائمة بالأعياد التي كان يحتفل بها على شرف إله الشفاء (وكان أحد أيام تلك الأعياد هو اليوم الذي سوف يموت فيه إيمري) وفي طقوس الاحتفالات يوصف أمنحوتب أنه هو الذي يرقد في (ديهان العظيم) وهو كهف محبب إلى قلبه.

اعتقد الأستاذ إيمري أن ذلك الكهف هو المتاهة العظيمة المتشعبة الممرات تحت الأرض ولم يكن إيمري يشك أنه كان في طريق اكتشاف قبر أمنحوتب ولكنه لم يكن يعلم إذا كانت القضية قضية أيام أم سنوات وقد علق علي الخولي على ذلك بقوله: «وفي النهاية كان متأكداً تقريباً أنه سوف يجد قبر أمنحوتب قطعاً»..

إن علماء الآثار عقدوا الخناصر كما فعل أرديان في متاهة كريت المينوسية لكي يتأكد أنه سوف يرجع إلى ضوء النهار من متاهة الممرات فقد عملت مصورات وختمت الأنفاق التي تم اكتشافها ولكن بعد أشهر كان إيمري مجبراً أن يسلم ويذعن أنه ما من ممر قد عمله سوف يؤدي إلى قبر أمنحوتب.

شعر (إيمري) بخيبة الأمل ولكن لم يكن هنالك أي شيء قادراً أن يثنيه عن عزمه، فلم يكن فشله في الاقتراب من القبر يعني أن قبر أمنحوتب غير موجود بل بالعكس ثبت له أن كل الحفريات التي عملها كانت دون هدف.

بدأ إيمري في الحفر في موقع آخر ولكن عبثاً، فلم يكن قد قدر له أن يشهد بأم عينيه أعظم انتصار له وهو اكتشاف قبر أمنحوتب.

لقد تتبعت قصص حياة كثير من علماء الآثار وكنت حريصاً على أن أكتشف فيما إذا كان هنالك أي قاسم مشترك في الحياة التي كانوا يعيشونها وفي الميتة التي

ماتوها ولكن وجدت أن ليس هنالك إلا القليل في حياتهم مما يمكن أن يقال: إنَّه خاص بهم دون غيرهم اللهم إلا هوى وانفعالاً عاطفياً تمليه عليهم مهنتهم المختارة إلا أنه كانت هنالك بعض المصادفات.

لاشك أنه من الصعب أن نصنف علماء الآثار ضمن فئة واحدة وهذه الحقيقة اكتشفتها مراراً وتكراراً أثناء الأبحاث التي أجريتها تمهيداً لإصدار هذا الكتاب وليست القضية قضية النظريات التي يعتنقونها فحسب بل قضية فروق في الأخلاق والشخصيات فهنالك بعض علماء الآثار الألمان الذين يصرفون النظر عن فكرة اللعنة ويعتبرونها مجرد هراء بينما نجد الآخرين يرفضون حتى أن يطؤوا بأقدامهم قبر الفرعون وعندما سألت أحد علماء الآثار في ميونيخ عما يخشاه في حياته فأجاب وكأنه (موحي دلفي اليوناني) «إنني أخشى الآلهة».

وإذا لم تكن اللعنة فريدة متصلة أو منحصرة باكتشاف قبر توت غنخ أمون فإن كثيرين من علماء الآثار يجب أن يكونوا قد ماتو بشكل غامض قبل أن يكشف النقاب عن مثوى توت غنخ أمون الأخير.

تحتوي المكاتب وأمكنة حفظ السجلات على أوصاف مسهبة للاكتشافات الأثرية والنظريات ولكن ليس فيها إلا قليل من الثمين النادر عن حياة علماء الآثار المرموقين قد سلط النور على حقائق جديدة تدل على أن لعنة الفراعنة بدأت في التأثير قبل قرن ونصف تقريباً وكانت دائماً تصيب الرجال الذين قضوا سنوات طويلة في مصر وكان لهم علاقة بطريق ما بالتنقيب.

هنديان دوميشين:

لنأخذ حالة جوهانس دوميشين المولود عام 1833 وهو ابن قسيس من سيلزيا وأستاذ في جامعة ستراسبورغ لقد تنقل هذا الأستاذ بصورة واسعة بين مصر وبلاد النوبة ولا يمكن تقييم عمله كما يستحق فقد نسخ كثيراً من المخطوطات من الهياكل وكثيراً ما كان يقضي الأسابيع بين الخرائب تحت الأرض ولكن شخصيته أخذت تتغير تدريجياً، ولو كانت هذه الظاهرة الوحيدة لما كنا ناقشنا هذا الأمر، ولكنها كانت واحدة من حالات عدة.

أصبح دوميشين يهذي وظهرت عليه أعراض بداية انفصام شخصية فقد بدأ يتحدث لعدة ساعات حول تجارب في علم لآثار في مواقع غير موجودة. وكان يخبر أي شخص يستمع إليه مثلاً عن حفرياته في قبر في طيبة حيث كانت رائحة الوطاويط النتنة تنتشر حتى إنه لم يستطع إلا أن يربط قطعاً من قشور البرتقال حول فمه أثناء العمل والحقيقة أنَّهُ لم يحفظ أي سجل يشير إلى أن دوميشين قد اشتغل في قبر كالذي وصفه وعندما رجع دوميشين إلى ألمانيا كان قد أصبح بحالة يرثى لها فلم يكن بوسعه أن يتم عبارة واحدة من الكلام وكان يقفز من فكرة إلى فكرة بعصبية والأسوأ من ذلك أن كتابته كانت بهذه الطريقة أيضاً.

انتاب الناشرون اليأس أيضاً فقد طلب منه (بيدكر) أن يكتب (مرشداً لمصر العليا) ولكنه مزق تلك الطبعة لأن الكتاب كان سيئاً جداً ولم يكن ناشر مجلدات تاريخ العالم أكثر حظاً فقد تعاقد مع (دوميشين) لكتابة الجزء المختص بالتاريخ المصري في تلك السلسلة.

بدأ دوميشين يكتب ويكتب ولكن وبعد كتابة حوالي (300) صفحة وجد الناشر المذعور أن الأستاذ لم ينته من كتابة المقدمة بعد.

وهذه الأعراض تشبه الأعراض التي تنتج عن تعاطي المخدرات، فبعض الأشخاص العاديين عندهم انفصام كامن دون أن يقاسوا من المرض وإنَّ تعاطي جرعات كبيرة من المخدرات يمكن أن تسبب نشوء الانفصام أو السلوك الفصامي. وقد علق الدكتور جون جريفيت أن أحد طلابه الذي كان يتعاطى بعض العقاقير، لم يستطع أن يجيب على بعض أسئلته فاستشاط الطالب غضباً وأخذ كتاباً يحتوي على (453) صفحة من الموضوع الذي فشل في الإجابة عنه وحفظ كل كلمة من هذا الكتاب عن ظهر قلب وقد ذكر طبيب أمريكي آخر حادثة عن طالب كان يجيب على أسئلة الامتحان وهو مخدر فكتب الأجوبة كلها على السطر العلوي في قطعة من الورق.

كان المصريون القدماء يعلمون الكثير عن المخدرات. وفوق ذلك فنحن نعرف الآن أن أقل تماس مثل مسح الإنسان فمه بظهر يد ملوثة بالمخدر إنَّ ذلك يسمح للمخدر أن يدخل ويؤثر على الكائن الحي. وإن اكتشاف الصيدلي السويسري الدكتور ألبرت هوفمان لأحد المواد المخدرة السريعة في عام 1938 هو أحد الأمثلة على هذا التأثير.

فقد كان يشتغل في شركة سوندوز للأدوية في مخابر البحث في مدينة بال عندما دخل فمه بطريقة ما بضع أجزاء من المليون جزء من الغرام من تلك المادة المخدرة. وبعد حوالي 45 دقيقة أصبح يرى رؤىً فمن المعروف أنه يكفي أن تلمس مثل تلك المواد بالسبابة وبعد ذلك تمرر السبابة على الشفتين لكي يحصل التأثير المطلوب.

أعمال هنريخ بروش الغريبة:

هنالك طرق أخرى لبلوغ الذورة في التأثير فالحفر والاستكشافات والانتصارات قد سببت الذهول للكثيرين. ويبدو كما لو أن لعنة الفراعنة قد مارست بعض التأثيرات والقوى السحرية على ضحاياها فقد رأينا كثيراً من العلماء البارزين ينتحرون لأجل العلم أو كانوا يرجعون من مصر وهم في حالة جنون نوعاً ما.

وهنالك مثال على هذا الجنون مسجل في سيرة الأستاذ (ادولف ايرمان) وهو مدير متحف برلين ـ القسم المصري، وهذا الحادث يتعلق بهنريخ بروش (1827 ـ 1894) وهو من مشاهير علماء الآثار في برلين وكان يستطيع قراءة الكتابة الهيروغليفية وهو في السادسة عشرة من العمر.

وينحدر بروش من عائلة برلينية نموذجية وقد كان والده رقيباً أول في الجيش ويعيش في الثكنات حيث ولد هنريخ ومع ذلك فإن هنريخ لم يكن راضياً عن أصله الوضيع حتى إنه عندما أصبح عالماً مرموقاً كان يخبر الناس أن والده كان أميراً.

ولقد كان بروش يتبجح مدة أنه قد عثر في حفرياته على رأس ملك في (سايس) مع أن كل معارفِه كانوا يعلمون أنه قد اشترى ذلك الرأس من إحدى حوانيت الآثار

القديمة ومرة أخرى كان بروش داليرمان في صالة العملات القديمة في المتحف حيث كان مدير المتحف قد نشر بعض الميداليَّات القيمة القديمة التي ترجع إلى عصر النهضة على إحدى الموائد ويتذكر إيرمان الحديث التالي :

بروش : ماذا لديك هنا يا عزيزي؟ .

إيرمان : ميداليَّات إيطالية ترجع إلى القرن الخامس عشر .

بروش : ماذا يعني كلمة بيزانوس فكتور فيسيت؟ .

إيرمان : ذلك هو توقيع الفنان .

بروش : كان لدي من هؤلاء الكثير عندما كنت أحفر في دلتا النيل مع فيزالي ولقد وجدنا كومة منها .

إيرمان : وماذا فعلت بها؟ .

بروش : لا أعلم ، لقد وزعتها كلها .

إيرمان : لقد خسرت ثروة عظيمة .

بروش : وهو كذلك .

ويعتقد إيرمان أنه من الممكن أن يكون بروش قد وجد طبقاً من النحاس أثناء إحدى حفرياته ولم يجد أي شيء أكثر قيمة من هذا .

هل كان هذا نوع من الاضطراب العصبي أم هل كانت حواس بروش قد تأثرت بتأثير خارجي طارئ؟ . أصبح بروش غريب الأطوار بعد أن قضى سنوات عديدة في مصر .

وقد ادَّعى (غاستون ماسبيرو) (مدير الآثار) أن بروش كان يدعم أعماله العلمية بادعاءات مختلفة كاذبة وأشار إيرمان أيضاً إلى أن بروش اقترح نظريتين متعارضتين بكل ما في هذه الكلمة من معنى وذلك بالنسبة لما يدعى (شعوب البحر) في عملين من أعماله .

ولكن من الغريب أيضاً أنه رغم هذه الميول الفصامية فإن بروش أحد علماء الحضارة المصرية المعترف بهم . فهذا الرجل العملاق الذي كان ينسى كل ما حوله من

العالم عندما يتتبع مشكلة تاريخية والذي كان يعتبر المومياءات أمامه وكأنها رجال أحياء؛ هل كان هذا أيضاً ضحية من ضحايا لعنة الفراعنة؟ والحقيقة أنه كلما طالت إقامته في مصر زادت أحواله غرابة وأخيراً ترك القاهرة فجأةً بعد أن أعلم السلطات في برلين أنه سوف يخلف الأستاذ ريتشارد ليبوس في الجامعة مع أنَّ الأستاذ المذكور كان لا يزال يشغل كرسيه كأستاذ هناك. وفوق ذلك فقد هدد بروش السلطات الألمانية أنه إذا لم يسلموه المركز الذي طلبه فسوف يستلم مركزاً مشابهاً في باريس وهذا المركز لم يعرض عليه أحد أن يستلمه.

وحدث مرة في برلين أن شكا إلى الصحافة أن العلماء الآخرين كانوا يضطهدونه ومثْلُ الكثير من زملائه أصبح بروش ضحية لهذا الكابوس وقد كتب إيرمان في مذكراته: نحن دائماً نذكر اللوثة الصغيرة التي تلتصق بكل رجل عبقري وإذا كانت هذه اللوثة مؤلمة في حالة بروش فنحن نستطيع أن نكيل اللوم على سوء الطالع فقط.

حياة تشامبليون القصيرة:

إذا تراجعنا القهقرى قليلاً في تاريخ علم الآثار فإنَّنا نصل إلى تاريخ جان فرانسوا تشامبليون الذي يشبه الأساطير فقد عاش هذا الرجل بين 1790 ـ 1832 ونجح في حل رموز اللغة الهيروغليفية القديمة وكان رائد الباحثين في الحضارة المصرية.

إن كلمة الهيروغليفية هي كلمة يونانية يمكن أن تترجم إلى (الصور المقدسة) والحقيقة أنه منذ التاريخ اليوناني القديم حتى زمن اكتشاف تشامبليون لمعانيها ظلت هذه الكلمات تحمل معاني السرية والغموض والقداسة. وحتى نهاية القرن الثامن عشر كان بعض العلماء يعتقدون وبجدية بالمضمون السحري لهذه الكلمات ورفضوا دراستها وكان العالم الدانماركي (جورجان زوجا) أحد أولئك الأوائل الذين باشروا بدراسة الأحرف الهيروغليفية بجدية. ولكنه لم يستطع أن يحل رموزها بل وصل إلى استنتاج هام أسس تشامبليون فيما بعد عليه اكتشافاته القادمة فهو قد أدرك أن الإطارات البيضوية الشهيرة حول بعض إشارات معينة تدل على أن في داخلها اسم الفرعون.

إن حياة تشامبليون القصيرة المدهشة ظهرت عليها بصمات القضاء والقدر فحتى قبل ميلاده تنبأ أحد العرافين أنَّ ـ جان وهو والد فرانسوا وكان بائع كتب في مدينة صغيرة جنوبي فرنسا ـ سوف ينجب «ضوءاً ينير الطريق للأجيال القادمة» وعندما ولد جان فرانسوا عام 1790 أظهر مواهب مبكرة ولم يكن قد تجاوز الخامسة عندما طلب من والدته أن تقرأ له بضع فقرات من الكتاب المقدس (التوراة) بصوت عال وعندها أعاد عليها كل ما قرأته كلمة كلمة.

فزع والده من ذكائه الخارق فطلب من الأم أن تتوقف عن القراءة للطفل وهذا شجع ابن الخامسة من العمر أن يسرق التوراة من دكان والده ويدرسها سراً ولم يعرف القراءة أو الكتابة ولكنه كان يحفظ صفحات وصفحات من التوراة عن ظهر قلب وعرف أين يجد المقاطع في الكتاب وكان يقارن بين نغمة الكلمة وطولها في الكتاب فوجد التوافق بين هاتين النقطتين وقرر بذلك أن لفظ اللغة الفرنسية غالباً ما ينحرف عن الكلمة المكتوبة. ومع ذلك فقد أرسله والده إلى المدارس المحلية في البلدة وصمم أن يكون ابنه ولداً عادياً وليس أعجوبة عبقرية.

حجر رشيد:

كان أخو جان فرانسوا الأكبر وهو جاك جوزيف شخصية مأساوية فقد درس التاريخ وأصبح مهتماً بالفن المصري القديم وعندما شرع نابليون بونابرت في حملته على مصر عام 1798 حاول عبثاً أن يأخذه معه بين العلماء والمؤرخين. وعندما شعر بخيبة الأمل المريرة عدل عن دراسة التاريخ وانتقل إلى مدينة جدينوبل وبدأ يمارس الحياة العمليَّة.

وفي عام 1801 استدعى جاك جوزيف أخاه جان إلى (جدينوبل) ليحصل على دراسة أفضل نظراً لعبقريته. وكان الأخ الأكبر مشتركاً في جريدة فرنسية اسمها (رفيق السياح إلى مصر) وكانت آخر صدى لغرام مكبوت. ولهذه الجريدة يرجع الفضل في تقرير مستقبل تشامبليون الصغير.

وفي أحد الأيام نشرت الجريدة تقريراً جاء فيه أن جنود نابليون وجدوا حجراً في دلتا النيل في عام 1799 قرب قرية (رشيد) وكان الحجر من البازلت وكان عليه فقرات بثلاثة خطوط : الأول بالخط الهيروغليفي. والثاني إما قبطي أو ديموطيقي (وهو مبسط عن الهيروغليفي) والثالث والأخير الخط اليوناني.

وكان من السهل ترجمة الخط اليوناني فهو عبارة عن كلمة شكر وثناء من كهنة ممفيس كُتِبَ عام 196 ق. م إلى الملك بطليموس الخامس الذي كان قد تولى الحكم في تلك السنة وقد أصبح بطليموس يتمتع بشعبية واسعة نظراً لأنه تغاضى عمَّا يأخذه الكهنة من ضرائب وعمل مصادر جديدة لمدخولات المعابد وقرر الحماية الخاصة للمعابد أثناء الحرب فضلاً عن أنه قدم الهدايا السخية لثيران أبيس ومينفيس المقدسة أكثر مما قدم أي ملك آخر في الماضي وكل هذا شجع الكهنة أن ينحتوا حجراً تكريماً للملك عليه هذا الخطاب. «إلى بطليموس الخالد المحبوب من قبل الإله بتاح وإيبفانوس، الإله الذي قدم الكثير للمعابد وساكنيها الذين يعيشون تحت حكمه لأنه إله وابن إله وإلهة فهو يشبه حورس بن إيزيس وأوزيريس الذي كان يحمي والده من الأذى».

وكان من المعقول الافتراض أن النصين الأولين كانا مشابهين للنص اليوناني. ونتيجة لذلك فقد نسخ ما كتب على حجر رشيد وصور فوتوغرافياً وصنعت منه قوالب وحاول العلماء في جميع أنحاء العالم حلَّ رموزه.

كان جان فرانسوا تشامبليون في الحادية عشرة عندما قرر حل رموز حجر رشيد وكان نشاط هذا الولد الهائل وصبره يتجليان في الحقيقة السافرة وهي أنه قضى واحداً وعشرين عاماً محاولاً حل هذا اللغز وفي خلال هذه السنين بدأ يقترب ويقترب من إزالة الغموض عن ذلك السر.

وفي السنة التي ترك بها تشامبليون المدرسة في (عام 1807) وهو في سن السابعة عشرة ليدخل أكاديمية العلوم كان يدرس اللغة القبطيَّة وهي شكلٌ متطور من أشكال

الهيراطيقيَّة وهي أبسطُ من اللغة الهيروغليفية والديمقوطيقية المتطورة من هذه وقد اكتشف أن الخط الهيروغليفي بعكس القبطي فيه ثمانية ضمائر شخصية وهي تتطابق مع إشارات صوتية مشابهة وهذا ما جعله يستنبط أن الهيروغليفية تتألف من أصوات فضلاً عن رموز وقد عد تشامبليون نحو 486 كلمة يونانية على حجر رشيد ولكن العدد كان 1419 بالنسبة للكتابة الهيروغليفية وقد بدأ يتقدم في عمله طبقاً لما كان يفعل وهو صبي صغير لا يعرف القراءة والكتابة عندما قارن التوراة المكتوبة مع ما كان يحفظه من النصوص.

وقد قرر أن أسماء الفراعنة والأعلام يجب أن يكون لها نفس الأصوات باللغات الثلاث وكان الطبيب الإنكليزي (توماس ـ يونغ) قد حل قبل ذلك اسم بطليموس في عدد من الأسماء المكررة في النص ـ وقد عمل تشامبليون حركة انعطاف أو التفاف حول الموضوع فقد جلب صوراً أخذت عن إحدى المسلات في مصر وكان يعلم أن اسم كليوباترة مستعمل بشكل متكرر عليها. وقد وجد ودمج الإشارات الصوتية بطريقته الخاصة على الأحرف T. P. L التي هي أيضاً جزء من اسم بطليموس وكان الرمز قبل حرف L في كلمة كليوباترة يجب أن يكون إما K أو G.

وعندما استلم تشامبليون نسخاً من عدة مخطوطات متعددة في 14 أيلول 1822 استطاع أن يحل رموز اثنتين منها حالاً وهي رعمسيس وتحوتمس ولم يكن هنالك شك بأن تشامبليون قد استطاع حل الرموز الهيروغليفية. وعندما صرخ في وجه أخيه بسرور «لقد نجحت» وهنا رفع ذراعيه عالياً ثم انهار تماماً كما لو أصابته صعقة كهربائية وبقي فاقد الوعي مدة خمسة أيام (وقد عزز هذه الأقوال عدة مؤلفين بما فيهم أدولف إيرمان نفسه) وبعد أن استعاد تشامبليون وعيه تكلم عن رؤى غريبة وصار يتعلثم ذاكراً أسماء عدة فراعنة من الذين استطاع حل رموز أسمائهم.

أعلن تشامبليون اكتشافه في 27 أيلول عام 1822 أمام الأكاديمية العلمية في باريس وبذلك سمي أستاذاً للحضارة العلمية المصرية وفي عام 1827 أرسل إلى مصر (في خدمة العلم كرئيس لبعثة ومعه روزيليني من جامعة بيزا وهذه البعثة كانت تمولها

الحكومة في توسكانيا والملك شارل العاشر في فرنسا وبهذا تحقق حلم طفولته ولكن تحقيق هذا الحلم كان هو الحكم بالموت على تشامبليون فقد مات في عام 1832 بعد رجوعه من مصر بقليل بسبب تشويشات شلل ولم تعرف أسباب موته تماماً وكان في الثامنة والأربعين من العمر.

بلزوني المتعدد المواهب:

إن موت جيوفاني بلزوني (1778 ـ 1823) ـ وهو من أشهر علماء الحفريات الأوائل وأكثرهم نشاطاً ـ لا يقل غرابة عن هذا وكان جيوفاني ابن أحد الحلاقين في (بادوا) في إيطاليا وقد شغل عدة مناصب وجرب العمل في عدة مهن وكان أبواه المتدينان يرغبان في أن يصبح ابنهما كاهناً ولكنه أصبح عاملاً في السيرك ورجلاً قوياً، ثم ممثلاً ثم مغني أوبرا ثم مهندساً ومستكشفاً وإنه لمن الأسهل أن نعدد الأشياء التي لم يكن بإمكانه عملها.

وقد قضى بلزوني وقتاً طويلاً في إيطاليا وهي مسقط رأسه وبدلاً من ذلك فقد عاش في إنكلترا والبرتغال وإفريقيَّة وذهب إلى إنكلترا ومعه مجموعة من الممثِّلين ولما كان يتكلم الإنكليزية بشكل مكسر فقد أصبح يمثل في مسرحيات هزلية صامتة كمهرج وذلك لكسب رزقه بعرق جبينه وبعد ذلك ارتقى إلى مغنٍّ في الأوبرا وأثناء إقامته في لشبونة تزوج من المغنية الأولى في الأوبرا واسمها (أنجيلا فالابريك).

وكان بلزوني مغرماً بالرحلات ولم يستطع أن يفسر حتى لنفسه مقدار تعطشه للسفر وكان هنالك حافز يدفعه للتنقل من مكان إلى مكان فبعد أن جرب العمل في عدة مهن أمر بطبع بطاقات باسمه تصفه باسم (الرحالة المشهور).

وكان بلزوني يعبد إفريقيَّة وجاب قسماً كبيراً من غرب إفريقيَّة وحاول أن يحل اللغز الذي كان قائماً حينذاك وهو هل نهر النيل ونهر النيجر هما نهر واحد؟ فقد زار مصر أولاً عام 1815 ليس كمغنٍ أو عالم آثار بل كمخترع. فقد أنشأ ناعورة تشتغل بقوة تزيد أربع مرات على النواعير الموجودة وطلب تسجيل اختراعه وإعطاءه براءة

اختراع لدى محمد علي باشا وعندما رفض طلبه تحول الرحالة المشهور إلى علمٍ آخر وهو علم الآثار.

وكان الوقت حينئذ مواتياً ومساعداً فمنذ حملة نابليون على مصر أصبح كل شيء مصري مطلوباً في جميع أنحاء العالم، من رسوم ولوحات زيتية وأصبحت الإنتاجات الاصطناعية الآتية من أرض العجائب (مصر) تباع بأسعار خيالية. وهنا دخل الرجل القوي إلى ميدان العمل ولمدة خمسة أعوام كان يبحث عن الكنوز المخفية وحيث كان يفشل عقله الذكيُّ في إتمام عمل ما كان يستعمل عضلاته أو الديناميت إذا احتاج الأمر.

ولقد تعرف على القنصل البريطاني العام في مصر وهذا استأجر بلزوني لنقل قاعدة تمثال أمون التي وجدت في الأقصر وقد نقل بلزوني هذه القاعدة إلى حيث أرسلت إلى لندن. وكانت هذه بدايته وكثرت الآثار التي نقلها فقد انزلقت إحدى المسلات التي كان يحاول نقلها إلى إحدى العربات واستقرت في قعر النيل ولكنه استطاع إخراجها وهكذا زادت رغبته في الحصول على آثار جديدة وأخيراً أصاب قسطاً من النجاح.

كتب بلزوني يصف الحالة في مدينة الأموات في طيبة في أوائل عام 1800 يقول: «صدف أن وصلت إلى دهليز طوله حوالي 25 قدماً ولم يزد عرضه على مسافة يستطاع المرور فيها وكانت ممتلئة بالمومياء ولم أستطع أن أمر دون أن ألمس بوجهي بعض العظام النخرة ولكن حالما اتجه الدهليز إلى الأسفل ساعدني وزني على الاستمرار في السير وما لبثت أن وجدْتُ نفسي مغطًّى بالعظام من الأرجل والأذرع والجماجم تتدحرج من عل وهكذا كنت أتنقل من كهف إلى كهف وكلها مملوءة بالمومياء بمختلف الأوضاع، فبعضها كان واقفاً وبعضها مستلقياً وبعضها واقفة على رؤوسها».

وبالإضافة إلى ما لا يعد ولا يحصى من المومياء المدفونة دون ما أبهة أو إسراف كالتي تمتاز بها قبور الأغنياء أو أولئك التي سرقت قبورهم على يد لصوص القبور فإن

بلزوني بعد أن عانى من الفشل الذريع ، اكتشف بعض الأشياء ذات الأهمية التاريخية وحتى إذا رجعنا القهقرى إلى عام 1817 لم يكن هذا سهلاً فكثير من القبور المنحوتة في الصخور كانت مأوى للفلاحين وزوجاتهم وأطفالهم وحيواناتهم ومع ذلك فقد وجد الرحالة المحترف قبر أحد الفراعنة في تلك السنة ولشدة فرحته وبهجته وجد أن هذا هو قبر الفرعون سيتي الأول ابن رعمسيس الأول وقد احتل هذا القبر اهتمام بلزوني وشعورَهُ مدة سنة كاملة فقد بدأ اهتمامه يتحول إلى اهتمام العلماء فضلاً عن اهتمام العمل فقام ينسخ كثيراً من الكتابات المنحوتة النافرة ورسم كل ما وجده ثم كتب في مفكرته : أن هذه الاكتشافات قد عوضت عن كل مالاقاه من متاعب أثناء استشكافاته .

أصبح بلزوني ثملاً بالنصر وهذا قاده إلى حتفه فقد كان مهتماً بصورة خاصة بهرم خفرع الذي ضاع مدخل مقصورة قبره فبدأ عالم الآثار الهاوي بفحص كل حجر في ذلك البناء الشامخ على علو 136 متراً ومع ذلك لم يجد أي إشارة لأي مدخل ولكن (بلزوني) بقي واثقاً من نفسه فإذا كان باب المقصورة غير موجود في داخل الهرم (كما كان الحال في هرم خوفو المكتشف حديثاً) إذن فيجب أن يكون المدخل تحت الأرض في مكان آخر .

كانت الكثبان الرملية متراكمة في شمال الهرم فأسرع بلزوني في استئجار كتائب من العمال لإزالتها وأخيراً وجد ممراً كان قد بناه لصوص القبور ولكن بعد بنائه سقط عليهم لوح من الحجر في منتصف الدهليز العريض وكان طول اللوح 2 . 8م بعرض 85 . 1م وقد سبب ذلك اللوح حجز أحد العمال المصريين ولكن الرمل الذي كان ارتفاعه يصل إلى الركبة أنقذ حياة العامل . وقد وجد بعد فحص الصخور الأخرى أن من الخطر الاستمرار فإن كل كتلة حجرية يمكن أن تنهار عندها وجد بلزوني نفسه في وضعية حرجة وقد قضى أيّاماً أمام هرم خوفو الأكبر حجماً وهو يدرس الثقب الكبير في جانبه ثم رسم مخططات أرضية وصوراً للزوايا المستعملة وقارن بين الجهات الأربع على البوصلة واتجاه الريح وأخيراً استنتج أن مدخل هرم خفرع يجب أن يكون مكانه في الشرق .

ولقد ثبت ظن بلزوني إذ وجد ثلاث قطع من الغرانيت المغطى بالرمل ثم وجد دهليزاً وراءها وهذا الدهليز انحدر بشدة إلى الأسفل وانتهى بعد ثلاثين متراً أمام حائطٍ صخري وقد استغرق بلزوني ثلاثين يوماً في كسر حجر واحد واستخراجه من الجدار وعندها فقط استطاع أن يحشر نفسه خلال الفرجة الضيفة المكتشفة ثم حمل بلزوني مشعلاً به شموع مجدولة وسار عبر الدهليز الذي يتجه أفقياً وكان التوجيه ليس صعباً فقد كان نظام الدهاليز يشبه نظام خوفو ثم كتب يقول:

«حينما كنت أمشي باتجاه الغرب دهشت عندما وجدت قبراً في الأرض ولكني وجدت بعض الأحجار وبضعة عظام» ولقد بدأ اليأس وخيبة الأمل يتسربان إلى نفسه عندما وجدت كتابة بأحرف سوداء مكتوبة على أحد الجدران. «لقد فتح بناء هذه المقصورة محمد أحمد وكان المعلم عثمان حاضراً وكذا كان الملك علي محمد حاضراً من البداية إلى النهاية. وهكذا وجد بلزوني أنه قد أتى متأخراً بضعة قرون».

ولكن مع أن هذه المغامرة لم تتكلل بالنجاح كلياً إلا أن بلزوني حصل على كمية لابأس بها من المال من القبور التي كشفها قبلاً عندما باع الناووس الذي حصل عليه من قبر الفرعون سيتي وفي عام 1820 عندما عاد بلزوني إلى إنكلترا عرض الكنوز التي حصل عليها للبيع مما أكسبه ما يكفي من المال لتمويل بعثة أخرى إلى إفريقية.

ولكنه لم يصل إلى مصر مرة ثانية أبداً، أو لم تلحقه لعنة الفراعنة أيضاً يا ترى؟!

في ربيع عام 1823 غادر بلزوني لندن تصحبه زوجته متوجهين إلى طنجة على ظهر قارب قديم فيه قمرة تتسع لستَّةِ أشخاص وغرفة للغسيل وكان هنالك فتحاتٌ في جوانب السفينة مما جعل المياه تتسرب إلى الداخل أثناء هبوب الأمواج العالية وتأخر وصولهم حتى أواخر نيسان.

وكان بلزوني ينوي أن يعبر الصحراء الكبرى متجهاً إلى السودان وقد اصطحبتْهُ زوجته حتى مدينة (فاس) وبعدئذ رجعت إلى انكلترا حسب الاتفاق بينهما

ولكن سرعان ما اضطر بلزوني للرجوع وذلك لأن قبائل الطوارق منعوه من التوغل في الداخل وهكذا قرر أن يستمر في رحلته بحراً باتجاه سيراليون.

وهنالك بدأ ذلك المرض الغامض الذي أصاب معظم علماء الآثار ينهش جسمه ومعه تلك الحمى اللاهبة والهذيان الصاخب. عالجه أحد المتطبين بالراتنج والزيت والأفيون «إنني أشعر وكأن يد الموت تدنو مني شيئاً فشيئاً» قال هذا وهو يصرخ متألماً.

أرجع بلزوني إلى سفينته أملاً بأن تتحسن حالته من استنشاقه رائحة البحر المشبعة بالملح ولكن بدأت حالته تزداد سوءاً فقد أصبح نطقه مشوشاً ومتقطعاً وبعد ذلك قال:

«لم يبقَ لدي سوى بضع ساعات لأعيش، إنني أعرف ذلك ثم سحب حجراً كريماً أرجوانياً من أصبعه وقال لخادمه الأسود (أعطوا هذا الخاتم لزوجتي)».

توفي بلزوني في مساء ذلك اليوم في 3 كانون الأول عام 1823. وهو في الخامسة والأربعين من العمر.

ما الذي قتل الأستاذ بلهارز:

لا يقل غرابة عن موت بلزوني المبكر، تلك الظروف التي أحاطت بموت الطبيب والعالم (تيودور بلهارز) في مصر وهو في السابعة والثلاثين من العمر. كان هذا الطبيب ابن أحد الوجهاء في بلاط أحد الإمارات الألمانية. وقد بدأ تيودور الصغير بجمع الأحجار والنباتات والخنافس وهو لا يزال في المدرسة ووضع فهرساً مصوراً لهذه المجموعة واحتفظ بملفات مرتبة. وكان مثالياً.

وفي الثامنة عشرة سُجِّلَ في جامعة فرايبرغ لدراسة الطب وعلم الحيوان وتاريخ الأدب وعلم الآثار والفنون الكلاسيكية. وبعد سنتين ترك فرايبرغ وسافر إلى توبنجن حيث قرر أن يتم ثقافته الطبية ويشاء القدر في تلك الحقبة أن عميد كلية الطب هناك نظم مسابقة علمية اشترك فيها بلهارز وموضوعها (معرفتنا الحاضرة حول دم

اللافقريات) وفاز بالجائزة الأولى وبعد أن اجتاز الفحوص الشفوية قبلت مقالته كأطروحة مطلوبة (من كل طالب طب) وبذلك منح شهادة على أساسها.

وكانَ أول أعماله تعاونه مع الطبيب ولهم جريزنجر عندما استدعيَ هذا الأخير إلى مصر في أوائل عام 1850 ليصبح طبيب الخديوي الشخصي الخاص ورئيس الأطباء في مصر. وقد أخذ معه بلهارز الشاب كمساعد له ولم يكن بلهارز ليتخيل أنه سوف يخلف جريزنجر بسرعة فائقة فقد كان الطبيب المسن يتصور أن واجباته في العمل كانت تختلف عما وجدها ولذلك فقد ترك العمل وبذلك أفسح المجال لبلهارز.

عندها استطاع العالم الشاب أن يكرس نفسه لاهتماماته السابقة أثناء وجوده في الجامعة، فاشترك في الحفريات حيث كانت مساعدته أمراً مرغوباً به وذلك لمعرفته علم الآثار معرفة عميقة فضلاً عن تمكنه من اللغات، الأمر الذي ساعده على القيام بأعمال الترجمة بين فرقاء عرب وإنكليز وطليان.

وبعد أن سمي بلهارز أستاذاً للتشريح الوصفي في جامعة فريبرغ في عام 1856 أخذ اهتمامه يتزايد بتشريح المومياء ذلك الاهتمام الذي بدأ ينبثق من جرَّاء عمله في علم الإنسان وعلم التشريح المرضي. وهكذا وبصفته مختصاً بعلم الإنسان أرسل للجامعة قفصاً يحتوي على جماجم مصرية وذلك بمناسبة العيد الأربعمائة لتأسيس الجامعة أما بصفته عالماً للتشريح المرضي فقد كانت هديته ليس للجامعة فحسب بل للإنسانية قاطبة فقد اكتشف سبب ذلك المرض الاستوائي الغامض الذي كان يكتسح مصر لآلاف السنين وهو مرض (البلهارسيا) وهو ينتقل بوساطة ديدان طفيلية صغيرة موجودة في طين النيل فقد اكتشف بلهارز بيوض هذا المرض المتكلسة في كليتي مومياء يرجع تاريخها إلى الأسرة العشرين.

وفي هذا الوقت تابع بلهارز بحوثه في مصر فقد كان الشعب المصري يعيش تحت كابوس مستمر من الخوف من المرض فالطاعون والتيفوس والكوليرا كانت لا تزال تتقاضى الضريبة التي كانت تتقاضاها قبل قرون ولكن اكتشافات روبرت كوخ

ولويس باستور في علم البكتريا والجراثيم جعلت الشفاء من هذه الأمراض قضية مألوفة لأول مرة.

وفي صيف عام 1858 مات أربع سواح أوروبيّين بشكل متتال خلال بضعة أيام بعد أن زاروا هرم الجيزة وقبور الملوك ولم يذكر أحد حينها لعنة الفراعنة ولكنهم كانوا يتكلمون عن الطاعون والتيفوئيد ولتهدئة مخاوف الشعب وتسكينها أجريت عمليات تشريحية لجثث الضحايا الأربع وكانت النتائج المعطاة أن سبب الموت يتراوح بين طاعون شرقي أو نزلات صدرية معها أعراض الطاعون والحمى التحسسية والتيفوئيد ولكن الجراح النمسوي (اسكندر رير) ومواطنه عالم التشريح جورج لوتنر (وكلاهما التحقا بالخدمات الطبية في مصر بعد حدوث هذه الوفيات) قرر هذان فيما بعد أن نتائج التشريحات قد ألغيت وعلى أي حال لم يستطع هذان الطبيبان إعطاء تفسيرات لوفاة السواح الأربعة.

لقد حدت هذه التقارير بالسلطات الصحية في الإسكندريَّة لوضع ميناء الإسكندريَّة تحت الحجر الصحي وهذا أضر بالاقتصاد السياحي في مصر. ولم يرفع الحجر الصحي إلا بعد أن وصل لوتنر وريد ونصحا بإلغاء هذه الإجراءات السريعة وعلى كل حال فإن هذا الحادث يوضح الأهمية التي اكتسبتها أسباب الوفيات كما ذكرت في شهادات الوفيات.

وفي عام 1858 سمي بلهارز نائب رئيس الجمعية المصرية ووجد نفسه يواجه التزامات اجتماعية متزايدة. وكلغوي ومؤرخ فني زادت الحاجة إليه لإظهار أهمية الكنوز الأثرية للزوار وعنْدَها أتى الدوق إيرنست الثاني حاكم (جوبرج جوثا) إلى مصر في صيف عام 1862 (وكان الدوق يهتم بالصيد أما زوجته فكانت تريد أن ترى قبور وادي الملوك) عندما اختير بلهارز كمرشد للدوقة في زيارتها للأقصر وفي رحلة العودة إلى القاهرة بدأ بلهارز يعاني من تشنجات حمى عنيفة وعندما علم الأستاذ لوتنر بحالته أمر بجلب بلهارز إلى بيته حيث قضى أسبوعين في حالة سبات وبعد ذلك

توفي دون أن يستعيد وعيه ولم يستطع لوتنر أن يقرر أي تشخيص لسبب الوفاة وتشير السجلات الرسمية أن بلهارز مات بسبب حمى التيفوئيد. ولكن لوتنر عارض قائلاً: إنَّ صديقه وزميله قد وقع ضحية لحمى غامضة ولكن من أين أتت هذه الحمى وما الذي سبَّبها يا ترى؟.

أسباب الوفيات الأساسية:

إن قائمة وفيات علماء الآثار الذين ماتوا بشكل غامض في القرن الماضي تبدو وكأنها لا نهاية لها، ولكن بعد الفحص الدقيق تبين أن هناك ثلاثة أسباب محتملة للموت:

الحمى مع الأوهام وتوقع الموت ثم الاضطرابات التي صحبها انهيار في الجهاز الدوراني للدم. أو سرطانات مفاجئة قاضية على الحياة بسرعة.

لقد عمَّر عالم الآثار الألماني رتشارد لبسيوس (1810 ـ 1884) أكثر من أي من زملائه وهو الذي نقل مقابر بأكملها من وادي الملوك وبينها عمود من قبر سيتي الأول ولكنه أخيراً أصيب بضربة تركته نصف مشلول وكان تشخيص الأطباء أن السرطان كان السبب الرئيس في موته.

إن عالم الحضارة المصرية جورج مولر (1877 ـ 1921) الذي وجه أعمال الحفريات في قبور ما قبل التاريخ في أبو صير ومدينة الموتى في طيبة (قرب دير المدينة) كان خبيراً بطقوس دفن الموتى في مصر القديمة وقد قضى وقتاً طويلاً داخل المقابر ولقد كان والده من رجال الأعمال وقد ولد جورج في كراكاس ولكن والديه رجعا إلى ألمانيا وهو في السادسة من العمر ليؤمنا له التعليم المبكر ومثل بقية علماء الحضارة المصرية أصبح مفتوناً بمهنته المستقبلة وهو لا يزال ولداً واستطاع حل بعض الرموز الهيروغليفية وهو في المدرسة وعين وهو في الثامنة والعشرين ملحقاً علمياً في القنصلية الألمانية في القاهرة ولكنه مات وهو في الرابعة والأربعين من العمر بينما كان في رحلة إلى (أبسالا) وكان سبب الموت القشعريرة والحمى.

أما جيمس هنري براستد الأستاذ في جامعة شيكاغو فكانت أبحاثه ناجحة حتى إن روكفلر دعمه وساعده وكان شخصاً متمرساً اشترك في كثير من البعثات المصرية وقد وصل إلى مصر لأول مرة وهو شاب في عام 1894 وكان قد منح شهادة الدكتوراه من جامعة برلين منذ وقت قريب ثم بدأ يعاني من الحمى وقد ذكر ابنه تشارلز أنه حتى قبل وصول والده إلى الأقصر بدأ يشعر بالحمى ولكن هذه الحالة أصبحت تتحول من سيئ إلى أسوأ. قال الابن:

في كل يوم مساء كانت الحمى تعود لتبتليه مع هجمة مؤلمة بحنجرته وقشعريرة متناوبة وفترات بدا وكأن دمه يشتعل في أوردته ويخفق في رأسه وكان يظن أن نوبات من الملاريا انتابته ولكن الفحوص المخبرية التي أجراها طبيب انكليزي فشلت في تشخيص المرض فضلاً عن أن مادة الكينا فشلت في تسكين حدة المرض وقد أمره الطبيب أن يلزم فراشه حيث بقي أكثر من ستة أسابيع استمر المرض يعاوده بانتظام كل يوم ظهراً وينحسر في ساعات الصباح الأولى. وقد سمح له أن ينهض فقط عندما يطلبه كارتر لاستشارته حول أمور مستعجلة حول المقبرة، وفي هذه المناسبات كان يقوم بتلك الرحلة التي تبلغ عشرة أميال إلى الوادي وهو في عربة مفتوحة كانت تنقل عبر النهر وهو متشح بقناع من الكتان ليحمي نفسه من الغبار وكان يعود وهو منهوك القوى كلياً يرتجف من الحمى.

وكان براستد قد خطط للقيام بحملة إلى شبه جزيرة سيناء ورغم مرضه أخذ يشتغل بجد في أوراق البابيروس المختصة بالتشريح والحقيقة أنه كان واثقاً بمقدرته على القيام بتلك الرحلة فقد قال: إنّهُ سوف يقوم بها حتى ولو محمولاً. ولكن عندها تدخل القضاء والقدر بشخص أستاذ من كندا للأدب يدعى (لافلوير) وقد كتب براستد الابن يقول:

لقد كانت غرفة هذا الرجل بجانب غرفة والدي مباشرة وعندما قابلناه أعجبنا وكان يحمل رسائل إلى هوارد كارتر وقد سلمتها بالنيابة عنه. ولكن سرعان من

انتابه مرض الأنفلونزا وبدأ يشفى منه لولا أنه استلم دعوة من (كارتر) ليأتي حالاً ليرى المقبرة وقد كان لا يزال في الفراش تنتابه الحمى. ولكنه كان حريصاً على ألا تفوته مثل هذه الفرصة النادرة ولذلك نهض وزار القبر.

وفي تلك الليلة اشتد المرض على لافلوير وفي الليلة التالية وحوالي الساعة الثالثة صباحاً خرج الطبيب الإنكليزي من غرفة لافلوير وكان تشارلز لا يزال مستيقظاً فاقترب منه، ولكن الطبيب أومأ برأسه بصمت. لقد توفي لافلوير. ويتم تشارلز حديثه: حالما كنت أنتظر بهدوء فكرت بأنه لأمر جدُّ مؤلم أن يموت المرء وحيداً في الليل في تلك البلاد الغريبَة، قرب ذلك النهر الخالد في فندق مزدحم بالكثير من بني البشر الذين لا يعرفون شيئاً عما جرى.

رجع الطبيب ومعه خادمان وطنيان يحملان محفة مصنوعة من القصب المجدول حيث وضعت جثة لافلوير وحملناها نحن الأربعة وبعد ذلك جمعنا أشياءه وعندما انتهينا قال الطبيب فجأة: يجب علينا أن نمنع والدك من القيام بتلك الرحلة إذ ربما بدأ بها ولكنه لن يعود. فقلت له: «أعلم ما تريد أن تقول».

كانت الشمس تغمر غرفة والدي في الصباح الباكر وكان قد انتهى من تناول فطوره وهو في الفراش عندما دخلت مع الطبيب لنتوسل إليه مرة ثانية. «إني أعرف ما تريدان قوله» ابتسم لنا كلينا، ثم قال: «وأظن أنني أستحسِنُ اهتمامكما أكثر قليلاً بعد أن رأيت ما حدث في الليلة الماضية لقد سمعت بموت صديقنا ولذلك سوف أعدل عن مغامرة سيناء ولكن مؤقتاً»، ولكن الرحلة لم تتم أبداً. ومع أن براستد كان قد حطمته الحمى إلا أنه استمر في العمل مع كارتر في ناووس توت عنخ أمون الذي لم يكن قد فتح بعد. وقد ساهم أيضاً في الدفاع عن حقوق كارتر في المقبرة وقد قضى مدة في داخل مقبرة توت عنخ أمون لم يقضها أحد سوى كارتر نفسه. بعد أن أبل براستد من مرضه في الأقصر، ذكر أن كارتر قد بدا مريضاً ولكن كارتر الذي كانت المقبرة هي بيته الثاني، عاش أكثر من أي عالم من علماء الآثار فإن حياته الطويلة (مات وهو في

السادسة والستين) تعتبر نقطة ضد فكرة لعنة الفراعنة ولكن أعتقد أن هذه هي إحدى الشواذ ولكل قاعدة شواذ.

توفيت زوجة براستد التي كانت تصحبه عادة في حملاته في تموز عام 1934 وقد كتب تشارلز حول وفاة والدته وقال بأنها كانت تشعر بالتعب شيئاً فشيئاً حتى انتابها نعاس ثم نوم - نوم لم تستفق منه أبداً.

بقي براستد حياً مدة سنة ونصف سنة فقط بعد زوجته فقد تزوج ثانية من أخت زوجته الصغرى التي أخذها بدورها معه إلى مصر. كتب براستد في 21 تشرين الثاني عام 1935 وهو في ميناء جنوى وهو في طريقه إلى الوطن:

«إنني مشتاق كطالب مدرسة إلى الجلوس على طاولة الدراسة مرة ثانية لأراجعَ (تاريخ مصر). وقد كتب ابنه شارلز بعد ذلك:

في منتصف المحيط الأطلسي أصاب والدي ذلك الالتهاب الحاد في حنجرته وكان والدي يحسبه عودة للملاريا وهذا الالتهاب صحبته حرارة وقد فسَّرَهُ طبيب السفينة بالشكل الذي فسَّرَهُ به والدي. وعندما وصلت السفينة إلى نيويورك تبين أن المرض هو فقر دم انحلالي خبيث وهذا المرض كان حتى ذلك الزمن وقبل استخدام عقاقير (السولفا في أميركا) يعتبر مرضاً مميتاً. ومع أنهم عجبوا من رفضه المطلق للاستسلام إلا أن الذين أشرفوا على علاجه مع مؤسسة روكفلر للبحث الطبي والتي كان السيد روكفلر قد وضعها تحت تصرف الأطباء كل هؤلاء شعروا بالعجز وأخيراً توفي براستد في 2 كانون الأول عام 1935، فالفراعنة الذين كان قد كرس معظم حياته لأجلهم قد نادَوْه أخيراً فعليه أن يلبي النداء.